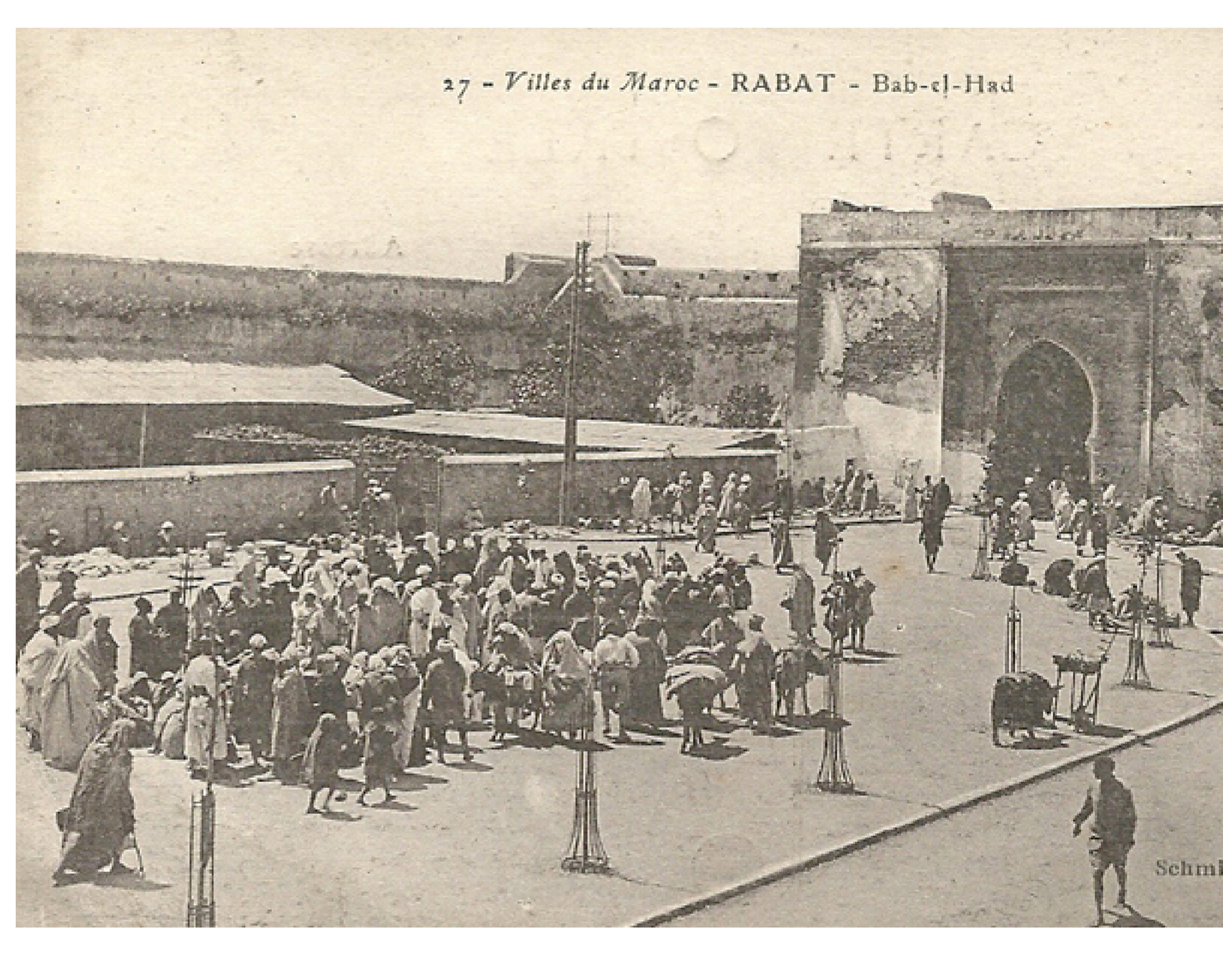




التاريخ : 25/8/2020- آخر تحديث : 1:14

مذكرات الماريشال ليوطي عن المغرب 15 : الحكم ليس تقنيا، بل سياسيا بسقف أخلاقي



أواصل هنا، في هذه الفسحة الجديدة، الخاصة برمضان 1438 (الموافق لسنة 2017)، ترجمة مذكرات الماريشال ليوطي، الخاصة بمهامه في المغرب. بعد أن ترجمت منذ سنتين أجزاء كبيرة منها ممتدة بين سنوات 1912 و 1917.
وهي مذكرات هامة جدا، كونها تعنينا كمغاربة، كونها تقدم لنا معلومات دقيقة عن كيف تشكل المغرب الحديث بعد احتلال فرنسا وإسبانيا لبلادنا، إثر توقيع معاهدة الحماية يوم 30 مارس 1912، والتي مرت عليها الآن 105 من السنوات.
وأهمية هذه المذكرات، كامنة، ليس فقط في كونها وثيقة تاريخية، بل أيضا في كونها كتبت من قبل صانع قرار، لم يكن عاديا قط في تاريخ المغرب الحديث، أثناء وبعد صدمة الإستعمار، الماريشال هوبير ليوطي، أول مقيم عام لفرنسا بالمغرب.
لقد جاء إلى المغرب بعد سنوات قضاها في مدغشقر ثم بالجنوب الغربي للجزائر عند منطقة بشار، وبعدها بمدينة وهران بالجزائر، ليمارس مهام المقيم العام بالرباط ل 14 سنة كاملة. وهي أطول فترة قضاها مقيم عام فرنسي بالمغرب. ليس هذا فقط، بل أهميتها التاريخية أنها كانت مرحلة تأسيسية لشكل الإستعمار الفرنسي في إمبراطورية كان لها منطقتها

الدولتي في التاريخ، في كل الشمال الغربي لإفريقيا، هي الإمبراطورية الشريفية المغربية. وأن كل أساسات الدولة الحديثة المغربية قد وضعت في تلك المرحلة، على مستوى إعداد التراب، أو التنظيم المالي، أو القضاء، أو التعليم أو الفلاحة أو المحافظة العقارية أو الجمارك. ومن خلال ما دونه في مذكراته نتتبع بدقة كيف ولدت كل تلك الترسانة التنظيمية للدولة المغربية الحديثة، بلغة صاحبها التي لا تتردد في وصف ذلك ب «العمل الإستعماري»، المغلف بالدور الحضاري. وهي شهادة فيها الكثير من جوانب الجرأة الأدبية التي تستحق الإحترام. ثم الأساسي، أنه كرجل سياسة كتب شهادته وأرخ للأحداث عبر مذكراته الخاصة، من وجهة نظره، ولم يلذ بالصمت، بل كان له حس تأريخي، يتأسس على إدراكه أنه يسجل كلمته للتاريخ.

لقد صدرت هذه المذكرات أول ما صدرت سنة 1927، أي سنة واحدة بعد مغادرته المغرب (بقي مقيما عاما بالمغرب من 1912 إلى 1926). ثم أعيد نشرها سنة 1944، في طباعة رابعة، قبل أن يعاد نشرها من قبل كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة 2012، إحياء للذكرى 100 لاختيار الرباط عاصمة للمغرب.

لنستمع لصانع من صناع التاريخ المغربي الحديث والمعاصر، كيف يروي قصة الأحداث من وجهة نظره. أو كما قال الزعيم اليساري الفرنسي فرانسوا ميتران عن مذكراته الخاصة هو: «هذه هي الحقيقة من الجهة التي كنت أنظر منها». أي أن للحقيقة دوما جهات أخرى للرؤية والنظر، يكملها عمليا المؤرخون.

الرباط: 19 دجنبر 1918

(تتمة)

ما كان يثير عند «بوريو»، وهو لما يزل ضابطا شابا، هو نضجه العالي، قوته الإدارية وتوازنه النفسي. ولقد كانت له ميزتان كبيرتان: عشقه الصوفي لمهنته، ثم تقدير ذكاء الأهالي. كانت الجندية في دمه. وكان يكفي للتأكد من ذلك، من مشاهدته وهو يقود فرقته العسكرية بالصحراء بمنطقة «الكير»، أو وهو يقود فرقة «الكوم» بمنطقة الشاوية (بالجزائر)، بصرامة القائد، بعينين يقظتين، بأوامر مختصرة، وكيف أن جنده ينصاعون له في انضباط.

كانت له قدرة على التواصل مع الأهالي، لم أجدها عند أي أحد غيره، وهي السلاسة ما يجعل الأمر مبهرا. لقد قرأت مرة أنه «ليس هناك عمل إنساني يمكن أن يكون بالفعل عظيما، بدون قدر من الحب والشغف». ولقد كان هو يتوفر على ذلك القدر من الحب والشغف، ما مكنه من إنجاز عمله الجبار (وهو جبار فعلا)، بالشكل الذي جعله أفضل، إن لم يكن الوحيد، ممن نجحوا في تحقيق تدبير سياسي للمجموعة الإسلامية بكفاءة، بيننا، في كل الشمال الإفريقي.

لقد كان الكثيرون يتقنون، إما تمحيص الملفات، أو حسن تأويل المعطيات، أو معرفة دقيقة باللغة المحلية والأدبية (وهذه أمور كلها مجتمعة فيه)، لكن ولا واحد منهم، امتلك تلك القدرة على التفهم العاشق للجنس المغاربي. ولأن الناس أحست ذلك الشغف وذلك الحب، فإنها، هنا، بالشمال الإفريقي، لم تتردد في أن تبادله ذات الإحساس بصدق.

فالجميع، من القياد إلى «الكوم» بالجزائر، ومن السلطان مولاي يوسف إلى أعضاء المخزن، هنا بالمغرب، وصولا حتى إلى أبسط الناس، الذين كان بعضهم يبكي بحرقة عند جثته. فكلهم كانوا يرون فيه صديقا ولهم فيه ثقة عمياء.

إنني سأبوح بذلك، سأراه بوجهه الصلب، يصيخ بالسمع إلى نبض هذا الشعب المغربي، القلق من المستقبل، ومن المرحلة الإنتقالية التي يجتازها، بكل مشاكلها التي تنفتح أمامه. بينما هو صبور، منصت إلى ذلك النبض، ويجوس على الجسد مثل كل طبيب يدرك فن التشخيص الدقيق للحالة. ولأنه كان ممتلكا لهذه الملكة، فقد كان أداة الربط الحاسمة والفعالة بين هذا الشعب المغربي ونحن. وأنه كان حجز الزاوية الحاسمة في سياسة الحماية بالمغرب.

إن السر كامن، في ما ظل يحمله للأهالي من تقدير صادق، إلى الحد الذي يجعلك تعتقد أنه من نفس جنسهم. وكانت له المعرفة الدقيقة والحداثية والعملية حول طرق تحقيق تطور هذا الشعب. وإذا كنا نضجر من قدم وتهافت مقاربة بعض المتخصصين في دراسة الأهالي، الذين لا يدركون أن الأرض تدور، فإنهم انتهوا إلى أن يكونوا أكثر عتاقة من الأهالي، بدعوى محاولة التقرب منهم. فينتهون إلى تحنيطهم في صورة نمطية جاهزة وميتة. وآه، كم كان «بويرو» بعيدا عن هذا النوع من الباحثين. وكل من اشتغلوا إلى جانبه هنا، في مجالسنا، يتذكرون الروح التي كان يصدر عنها. وكيفية نجاحه في فتح الأراضي أمام الإستعمار، وفي نسج العلاقة بين الأهالي والأوروبيين، وأن يشركهم في الشأن العام، وأن يدمجهم ضمن قيم نظامنا التعليمي. فكان يسبق بمسافات القرارات المتسرعة، من حيث أنه هو المدرك لطبيعة ذهنية الأهالي، قد كان

ينجح دوما في أن يحملهم على الإندماج في لحظة الإنتقال والتعايش معها بيسر. وتكون النتيجة، أن لا أحد يتملكه منطق الشك أو الخوف أو التردد.

كم ناقشته، وكم قضيت معه من الساعات، وأنا أصيخ السمع إليه، بإعجاب لشخصه ونباهته. فهو لم يكن يقبل أن لا تكون هذه البلاد التي هرقنا دمنا واستثمرنا مالنا فيها، بالنسبة لنا فضاء للتقدم إلى الأمام، وخزانا للثروات جد مخصب ومفيد لنا. في الآن نفسه، الذي لم يكن يقبل أن يستشعر هذا الشعب (المغربي)، الذي قدم الكثير من علامات الولاء والإنضباط، والذي يتميز بقدرة هائلة على البدل والعمل والعطاء، أنه مستغل وغير مستفيد من تلك الثروات. الأمر هنا، أكبر من مجرد سياسة للحماية، إنها مشروع لروح سياسية واجتماعية معززة برؤية أخلاقية سامية، تلك التي تحترم حقوق الشعوب، التي نحن اليوم نرفع لواءها عبر العالم (بعد الحرب).

لقد قدم «بوريو» أعظم نماذج التضحية. فحين اندلعت الحرب (العالمية الأولى)، لم يثقل علي بأي طلب. وكان بيننا ما يشبه العهد الضمني، حيث نظراتنا تكفي لنفهم ما يدور في خلد كل واحد منا. لقد أدرك أن مكانه في الحرب هي هنا بالمغرب، وليست في مكان آخر. وكان يدرك أنه لو قال لي: «لم أعد أحتمل، علي السفر إلى هناك»، كنت سأجيبه: «إذهب إذن». بالتالي فهو لم يطلب ذلك مني قط، لأنه كان موقنا أن دوره العسكري هنا. وأنا من جهتي لم ألزمه قط بشئ، لأنني كنت موقنا أن حاجتنا إليه بالمغرب حيوية.

فهنا، كان ينجز مهمته كاملة. مهمته المزدوجة، لتثبيت الحالة السياسية والعسكرية بهذا البلد، ويقدم المثال لضباطه في المخابرات، أي تلك الفرقة من النخبة، التي هي الوحيدة التي أعضاؤها لم يذهبوا إلى فرنسا أثناء الحرب، لأن مهمتهم هنا بالمغرب، كانت حاسمة ومركزية وفعالة.آه، لقد أنجز مهتمه العسكرية بتفان حيثما كان، حتى النهاية.

منذ شهرين، وقد بدأت تظهر عليه علامات المرض، ورغم مصاعب الطريق بمنطقة الغرب، كان يرافق الكولونيل «بيلليغران»، في مهمة حماية القبائل التابعة لنا وكذا مجالات إنتاجنا الفرنسية. ومنذ أسبوعين، حين رافقني إلى مراكش، وكنت ألمح مدى ألمه والتعب آخد منه جسديا، فإنه كان ملزما بالحضور بسبب مسؤولياته إلى جانبي لمواساة عائلات بعض الضحايا. لقد وهب نفسه لواجبه العسكري حتى آخر رمق. آه، كيف أنسى ليلة أمس الأول، وقد أنهى كل واجباته أمام ربه وأمام الله، وفي وعيه الكامل، أنه أنجز مهامه أمام رفاقه وأهله، استقبل زوجته التي نحيطها بكل رعايتنا هنا، حرص على أن يكمل واجبه العسكري، رغم الهذيان الذي بدأ يشتد عليه. ولن أنسى كيف أخد بيدي، وعينه في عيني، في الثانية صباحا من ليلة أمس الأول، ولا يزال رنين صوته عالقا بأذني، كي يهمس لي، بذات ما يقلقنا عسكريا، قائلا: «سيدي الجنرال، لقد أبرقت البارحة وقمت بمكالمة اليوم، لا تجزعوا فقد قمت باللازم». نعم، لقد قام بما عليه القيام به، هذا العزيز «بوريو»، لقد قام بذلك طوال حياته.

لقد قام بكل ما يتوجب عليه القيام به، حتى تلك الدقيقة الأخيرة وهو يعانق الموت، حيث كانت فكرة خدمة وطنه هي الغالبة لديه.

ليرقد بسلام، في تربة إفريقيا هذه، التي كم عشقها وأحبها»

الكاتب : إعداد: لحسن العسبي

بتاريخ : 13/06/2017